

الكتابات الأثرية التأسيسية في العهد العثماني

لقد تبوأَت النقوش الأثرية مكانة هامة في حقل الدراسات الأثرية ، كونها من المصادر الأثرية الأصلية التي لها أثر بالغ الأهمية في دراسة التاريخ والآثار على السواء ، إذ أضحت من التخصصات الأساسية بين مصادر هذه الدراسات ، وذلك للدور الرئيسي الذي اضطلعت به في حفظ التراث بصفة عامة والتراث المعماري بصفة أخص من الزوال ، حيث تعد هذه الكتابات وثائق أصلية لا يمكن الطعن فيها بسهولة ، نظرا للمعلومات والحقائق التي تحتويها مضامينهما ونصوصها ، فلا يكاد المختصون أن يؤرخوا معلما أثرا معماريا أو فنيا تأريخا صحيحا ودقيقا ، إذ لم تتوفر هذه البقايا الأثرية على مثل هذه الكتابات.

فهذه النقوش الأثرية هي الناطقة باسم المعالم الأثرية التي بنيت على مدار محطات مختلفة من التاريخ الإسلامي، وفي غياب هذه الكتابات تصبح هذه المنشآت هياكل صماء ، حيث يكون من العسير تتبع مؤسسي ومشيدي هذه المنشآت المعمارية وما هي ظروف تأسيسها وبناءها ، مما يشكل لبعض الباحثين والمختصين جملة من العوائق التي تحتم عليهم فتح باب الاحتمالات والترجيحات ، وتتعاظم قيمة هذه الكتابات الأثرية المدونة عندما يتعلق الأمر بالعمائر التي اندثرت وطمست معالمها أو تلك التي هي آيلة للزوال ، أو تلك التي تعرضت لعمليات الترميم والتي فقدت بالتالي أغلب خصائصها المعمارية .

فتصبح في هذه الحالة الدليل الوحيد على الآثار المندثرة ، فكم من معلم أثري ذهب أغلب ملامحه المعمارية وخصائصه الفنية ، وبقيت نقوشه دليلا ومعينا للباحثين على تقصي تاريخه وحقائقه وأخباره ، فهذا النوع من الكتابات ارتبط خاصة كما أسلفنا بالآثار المعمارية واصطلحت عليها اسم النقوش أو الكتابات التأسيسية ، والتي تعني التي تؤرخ لإنشاء العمائر الأثرية المتعددة، وما طرأ عليها من تعمیر يتمثل في تجديد أو ترميم أو هدم أو إضافة أو غير ذلك، وتعرف هذه النقوش أيضا بالنقوش التأسيسية أو التسجيلية، ورغم أنها حظيت بدراسات كثيرة إلا أن القليل منها هو الذي اهتم بإبراز أهميتها كمصدر للتاريخ الإسلامي.

وتضمنت المنشآت الأثرية في العهد العثماني لوحات تأسيسية تحمل في مضامينها مجموعة من المعلومات التي تفيد أسماء وألقاب مؤسسي وبناء تلك المعالم إضافة إلى ظروف تاريخ تأسيسها والظروف التاريخية المحيطة بذلك وأحيانا تاريخ الفراغ منها ، ومن بين النماذج المهمة الخاصة بالنقوش العثمانية في الناحية الغربية من الجزائر، نجد بعضاً من المعالم الموجودة بمعسكر كونها أول قاعدة للحكم العثماني في الناحية الغربية وكتابات تأسيسية أخرى موجودة في بعض المعالم في مدينة وهران باعتبارها إحدى عواصم بايلك الغرب الجزائري .

وهذه النقوش الكتابية تُعد تحف نادرة ، تنم عن المستوى الفني الذي بلغه الخط و الزخرفة في الفترة العثمانية بالغرب الجزائري و ذلك من خلال ما تضمنته تلك اللوحات الفنية من أصول جمالية وخصائص فنية تؤرخ لفترة مهمة من فترات انتعاش الخط العربي و الزخرفة في العهد العثماني ومرحلة امتزاج بين الخط المغربي المحلي مع الخط الوافد من المشرق ، إضافة إلى ذلك ما احتوته هذه النقيشة من حقائق ومعلومات تاريخية وخصائص لغوية وأدبية ، متمثلة في نصوص وكتاباتها .

- الكتابة التأسيسية للحمام:

يقع هذا الحمام والذي يعرف حاليا بحمام الترك في الجهة الشمالية من حي القصبة القديم على الضفة اليسرى لوادي الرحي، في منخفض يستوي فيه سطحه مع أرضية المستشفى العسكري الفرنسي القديم بودانس (L'hôpital Boudens) ، ولذلك فالولوج إلى هذا المعلم يكون عبر السطح بواسطة مقابل لنهج بن عمارة المنور، ويعتبر في نفس الوقت الواجهة الرئيسية لهذه البناية.

- الدراسة الوصفية:

لوحة من الحجر الكلسي مستطيلة الشكل، مقاساتها 69 سم: 97 سم x سم، وأما سمكها فيقارب 24 سم، واللوحة مكونة من إطارين، خارجي قد نقش عليه الفنان زخرفة نباتية وهندسية، فأما النباتية فتمثلت في زخرفة لولبية صاعدة من الأسفل إلى الأعلى تشغل الإطارين الصغيرين للوحة من ناحية اليمين والشمال، إضافة إلى الزخرفة الهندسية التي تمثلت في الهلالين اللذين يقعان في ذروة هذه الزخرفة، أما الإطار الأوسط فهو أكثر حجما بحيث خصصه الفنان لمساحة الكتابة، حيث زين زواياه بزخرفة نباتية تتمثل في أوراق نباتية، نفذت كتابة الشاهد بالخط المغربي وبأسلوب النقش الغائر، وتتألف الكتابة من ستة أسطر، واللوحة في حالة متوسطة من الحفظ جراء الكسور المتواجدة عليها وكذا تفتت بعض أجزاءها، وهذا راجع إلى التلف، الذي يعرفه الجيولوجيون بالفعل الناتج عن اتحاد بعض العوامل الطبيعية، كالمياه والحرارة والرياح والعواصف... الخ، التي لا تسبب التحلل المباشر للصخور فحسب بل تسبب أنواعا مختلفة من الأعراض غير المباشرة أو الثانوية ذات التأثير المخرب، كنمو البكتيريا وانتقال الأملاح وترشيح المكونات القابلة للذوبان، وأيضا يمكن ملاحظة التغيرات الفيزيوكيميائية

ورغم أن هذه الكتابة التأسيسية قد فقدت جزءاً من مضامينها الكتابية نتيجة لطبيعة المادة التي سُجلت عليها، فالحجارة الجيرية أو الكلسية هي من المواد الطبيعية الهشة التي لا تصمد كثيراً أمام العوامل الطبيعية والبشرية، إلا التاريخ المُدون عليها يُشير إلى سنة 1138هـ، وهي السنة التي شهدت فيها مدينة وهران جملة من الإنجازات العمرانية من طرف الباي، حيث ذكر رشيد بورويبة أن هناك كتابتان تشيران كلاهما إلى الحمام الذي بناه الباي بوشلاغم، كانت الأولى تزين جدار يحيط بفناء غير الفناء الموجود في قصره، والواقع أن الباي تولى أمر المدينة من سنة 1119هـ/1708م، والتاريخ المذكور في الكتابة إما 1125هـ/1713م وإما 1135هـ/1722م. وتضمنت نصوصها ما يلي :

-الحمد لله

-إن المجاهد في سبيل الله

-السيد مصطفى باي بن يوسف

-أمر بتشيد هذا الحمام في سنة 1151.

والواقع أن هذا الباي تولى الأمر بالمدينة من 1119هـ/1708م إلى غاية 1143هـ/1743م، والتاريخ المذكور في الكتابة إما : 1125هـ/1713م أو 1135هـ/1722-1723م.

أما الكتابة الثانية فكانت تُزين أحد الجدران التي كانت تُحيط بفناء ثالث، جاء فيها

-الحمد لله

-إن المجاهد في سبيل الله

-السيد مصطفى باي بن يوسف

-أمر ببناء هذا الحمام في

-شوال من سنة 1131 (قراءة رشيد بورويبة)

والتاريخ المذكور في الكتابة هو إما: 1123هـ/1711م وإما 1133هـ راجع إلى الازدياد الملحوظ في تعداد سكان المدينة. (قراءة رشيد بورويبة)
ولكن من خلال الملاحظة الدقيقة والقراءة المتأنية لهاتين اللوحتين نستنتج أن هناك بعض السقطات المعرفية الواردة في كتاب بورويبة ،
وقد جاءت نصوص اللوحتين على هذا الشكل النحو:

-الكتابة الأولى): أنظر الصورة رقم 01 (الكتابة الثانية)أنظر الصورة رقم 02)

- | | |
|-------------------------|----------------------|
| 1- أمر بتشيد هذه | 1 -الحمد لله |
| 2-حمام المجاهد في سبيل- | 2 أمر بهذا القايد |
| 3-الله السيد مصطفى باي | 3 -المجاهد في سبيل |
| 4-ابن يوسف أو ايل4 | 4 - الله السيد مصطفى |
| 5-شوال 1135 | 5 -باي عام 1135هـ |

والتاريخ المكتوب عليهما هو 1135هـ/1722-1723م ، وهو ما يتوافق مع مدة حكم الباي بوشلاغم للمدينة.
/1720م، لأن النشاط المعماري في هذه الفترات عرف وتيرة كبيرة .



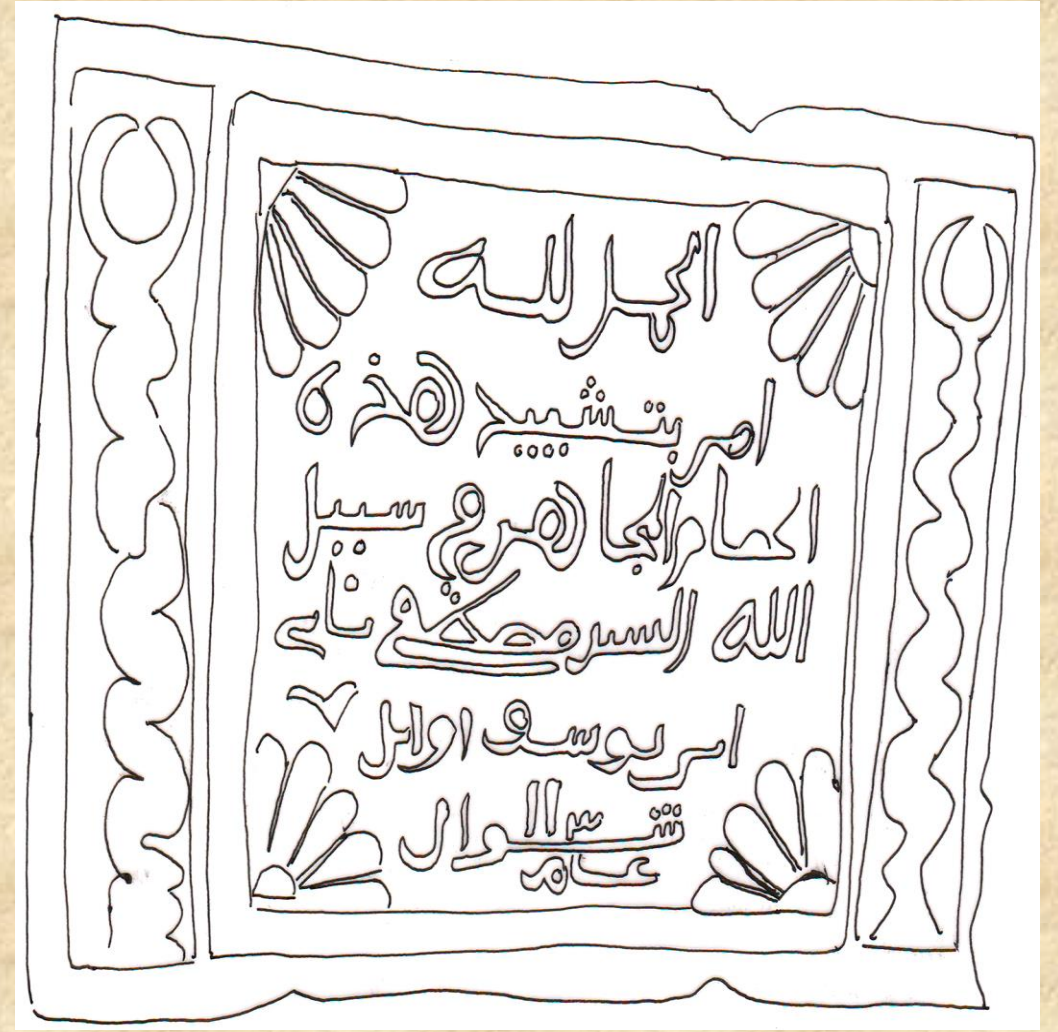
الصورة رقم 02: الكتابة التأسيسية الثانية للحمام



الصورة رقم 01: الكتابة التأسيسية الأولى للحمام



الشكل رقم 02: التفريغ الزخرفي الكتابة التأسيسية الثانية
للحمام



الشكل رقم 01: التفريغ الزخرفي الكتابة التأسيسية الأولى للحمام

التحليل الفني للكتابة التأسيسية للحمام:

ما يلاحظ في هذه الكتابة هو عدم التناسق بين الكتل الفنية، حيث نجد عدم توازن في تراكيبها اللغوية المكونة للنسق العام للوحة، حيث نجد بعض المفردات قد تجاوزت في رسمها أحجامها الطبيعية، لكن رغم ذلك فقد وفق النقاش إلى حد ما في توزيع الوحدات الفنية على كامل الحيز الكتابي، رغم شساعة هذا الأخير ومحدودية الكتابات المكونة له.

والملفت للانتباه أن النقاش لم يوف حروف أحجامها الحقيقية كحرف الهاء على سبيل المثال، فنجد الهاء التي تعرف وجه الهر قد كتبت أكبر من حجمها المعروف في الكلمة، كما هو الحال في كلمة "هذه"، "المجاهد"، ونفس الشيء بالنسبة للهاء المتطرفة المردوفة في لفظ لجلالة" الله" والتي أخذت شكلا أكبر من المعهود، أما فيما يخص الحروف القائمة فقد تميزت بالاستقامة والرشاقة، أما حروف ذات البدن المدور مثل النون والياء فقد نالت نصيبا من التدوير.

وجاءت حواف الميم مفتحة العيون ومختلفة الأنماط، فنراها أحيانا مدورة وأحيانا أخرى مثلثة كما أنه استرسل في الحروف ذوات الذيل مثل حرف الراء، أما بالنسبة للحروف المسننة فقد نقشت متفاوتة في أشكالها، بينما نرى أسنان السين بدت في جُلها متساوية الأسنان، كما عمد الفنان إلى مبدأ الاسترسال والاستطالة على غرار الياء الراجعة في كلمة "مصطفى"، ونفس الشيء في عبارة "شوال"،

الكتابة التأسيسية للمخزن :

حسب بعض الأبحاث الأثرية فإن هذه المنشأة المعمارية تقع ضمن مرافق القصر القصر الجميل الذي بناه الباي مصطفى بوشلاغم حيث يؤكد يحي بوعزيز أن هذه البناية كانت ملحقةً من ملاحق القصبة التي كانت مقر حكم الباي ، وأما رشيد بورويبة فيذكر أن المخزن هو مرفق من مرفقات القصر الذي بناه الباي. والإشكال المطروح هنا حول الموقع الصحيح لهذا المخزن في ظل تضارب المعلومات. ويقع هذا الأخير في ثكنة القصبة، التي كانت مركزاً ومقراً لقائد المدينة والموظفين، واتخذها الباي مقراً لسكناه وحكمه مدة ربع قرن، وجدد ما أمكن تجديده من عمرانها وكانت تتكون هذه المنشأة في تصميمها من قصر جميل يحتوي على سبعة وثلاثين غرفة وفناءً وبستان بصهريج، وقام أيضاً ببناء مخزن بقيت منه الكتابة المعروضة بمتحف وهران، وبيوت لبعض الوزراء من بينهم وزير الجمارك والمراقب العام للخزينة، وأمين المال، وأيضاً مصلحة المدفعية، وكذا مخزن للأسلحة، ومخازن للمؤن والعتاد الحربي ومخزن للدقيق وصيدلية خاصة، إضافة إلى مرافق أخرى.

كانت القصبة مقراً لقائد المدينة والموظفين، فبجانب قصر القائد، بيوت وزير الجمارك ومراقب المالية وأمين المال ومصلحة المدفعية والمعبد الملكي ومخزن الأسلحة ومخازن المؤن والأعتدة الحربية ومخزن الدقيق وصيدلية الملك ومسجداً قديماً وثكنتين كانتا تستطيعان أن تستقبلا فيلقين من الجنود الرحالة وهما: ثكنة الملك وثكنة القديس يعقوب. والإشكال المطروح هنا حول الموقع الصحيح لهذا المخزن في ظل تضارب المعلومات التاريخية، حيث يؤكد يحي بوعزيز أن هذه البناية كانت ملحقةً من ملاحق القصبة التي كانت مقر حكم الباي، وأما رشيد بورويبة فيذكر أن المخزن هو مرفق من مرفقات القصر الذي بناه الباي.

-تفكيك الكتابة:

1- الحمد لله وحده

2- أمر ببناء هذا

3- المخزن المجاهد في

4- سبيل الله مصطفى

5- باي بن يوسف

6- عام 1133

2.4 الدراسة الوصفية :

لوحة من الحجارة الكلسية (الجيرية) مستطيلة الشكل، مقاساتها: 74.50 سم x 68.50 سم، وأما سمكها فيقارب 24 سم، وتكاد تشترك هذه اللوحة مع سابقتها في التفاصيل الفنية، حيث تتكون أيضا من أربع أطر تتفاوت في أحجامها، حيث نجد الإطارين الخارجيين بسيطين، وإلى جانبها إطار جعل النقاش زخرفته تبدو على شكل ضفيرة حبل، وفي وسطهم نجد الإطار الكبير المخصص للكتابة، نفذت هذه الأخيرة بالخط المغربي بأسلوب النقش الغائر وتتألف الكتابة من ستة أسطر، واللوحة متوسطة الحفظ نظرا لأنها تعاني من كسور وتفتت في أجزائها وهذا يعود كما سبق أن قلنا إلى طبيعة الصخور الكلسية الهشة.



الشكل رقم 03: التفريغ الزخرفي الكتابة التأسيسية للمخزن



الصورة رقم 03: الكتابة التأسيسية للمخزن

-التحليل الفني للكتابة التأسيسية للمخزن:

هناك تشابه كبير في رسم حروف هذه الكتابة مع الكتابات التأسيسية للحمام ، حتى أننا نشك أنها قد نقشت أنامل نفس الخطاط في ورشة واحدة أو بضعة خطاطين من نفس الورشة ، وهذا ما تؤكد به بعض الأدلة الفنية منها أسلوب الخط المغربي البسيط وطريقة تنفيذ الكتابات بما في ذلك أسلوب الحفر (الحفر الغائر) وطريقة رسم الحروف وأوضاعها.

ونجد أن الحروف القائمة للكتابة قد اتسمت بالاستقامة والرشاقة، كما لم تنل الحروف ذات البدن المدور حقها من التدوير كحرف الراء، وقد استرسل الفنان في الحروف ذات الذيل مثل الراء والنون، أما حروف الأسنان فقد جاءت متفاوتة في أشكالها، حيث جاءت أسنان السين متساوية في بعض الأحيان، وغير متساوية في مفردات أخرى، كما خص الفنان بعض الحروف بالاستطالة مثل حرف الميم في كلمة "أمر" وحرف الباء في لفظة "بناء"، والملفت للانتباه هو إضفاء الفنان لبعض الخصائص الفنية التي رأيناها في الكتابات السابقة على هذه الكتابة ، ويظهر جليا استمرار الفنان في رسم الحروف القائمة بالاستقامة والرشاقة. كما لاحظنا أن حروف البدن قد نالت حقها من التقويس، مثل حرف الراء، كما استرسل أيضا في الحروف ذات الذيل، أما الحروف المسننة فقد تفاوتت في أحجامها، بينما حرف السين قد طمست أسنانه، ولذا تعذر علينا معرفة أوضاع هذه الأخيرة.

-الكتابة التأسيسية الخاصة بالأقواس:

نظراً لاندراست معالم هذه البناية المعمارية المهمة ، فمن الصعب تحديد الموقع الصحيح لها، ومما زاد في غموض المعلومات الخاصة بهذه المنشأة هو عدم وجود معلومات كافية وملمة من طرف المصادر التاريخية، والظاهر أنه تعرض للهدم في أعقاب الحملة الإسبانية الثانية لمدينة وهران ، لكننا نجد بعضاً من الباحثين الذي يعتقدون أن هذا المعلم كان في الجهة الغربية لواد الرحي .

ومن خلال نصوص الواردة على هذه الكتابة التأسيسية فإن هذا المعلم قد بني سنة 1138هـ/1725م في فترة حكم الباى بوشلاغم ، حيث كانت هذه البناية ضمن المشاريع العمرانية التي قام بها هذا الأخير في المدينة، والتي كانت في نهاية حكم الباى، وحول تشييد هذه الأقواس يذكر محمد الزباني في كتابه دليل الحيران ما يلي " :وسكنها أي وهران وجعلها قاعدة ملكه وحين استقر بها بنى الأقواس التي بالبلانصية وكتب عليه اسمه وتاريخ البناء ونصه: (الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أمر ببناء هذه الأقواس المجاهد في سبيل الله السيد مصطفى بن يوسف عام 1138هـ ولا زال رحمه الله بوهران إلى أن دخلها الإسبان مرة ثانية " والظاهر أن الباى بوشلاغم لم يمكث كثيراً بعد بنائها حتى باغتته الحملة الإسبانية الثانية على المدينة، ومن المحتمل أنها كانت من بين المعالم التي هُدمت في أعقاب الحملة العدوانية للاحتلال الإسباني.

5. تفكيك الكتابة:

1- بسم الله

2- والصلاة والسلام على من

3- لا نبي بعده أمر ببناء

4- هذه الأقواس المجاهد

5- في سبيل الله السيد مصطفى

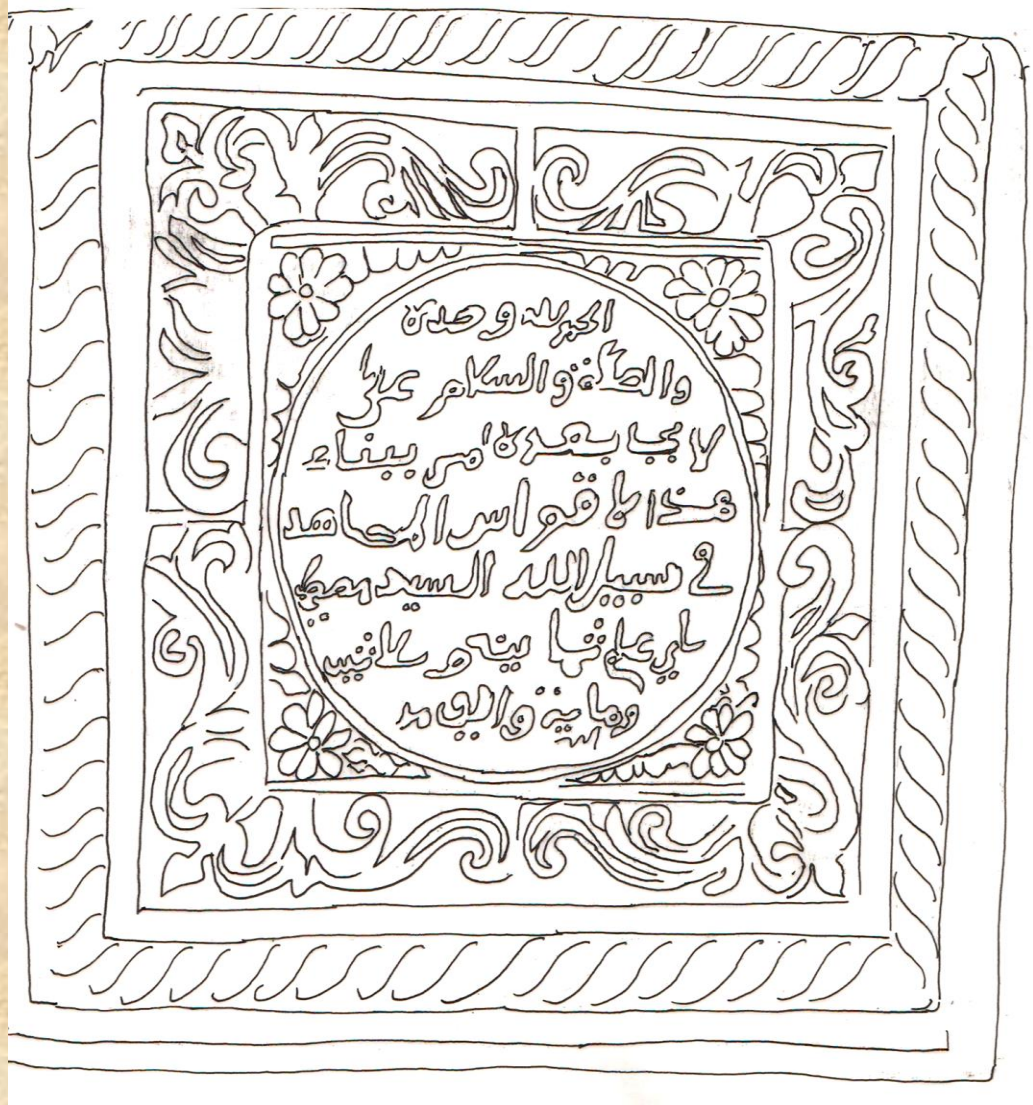
6- بن يوسف عام ثمانية وثلاثين

7- ومائة ألف

-الدراسة الوصفية:

لوحة من الحجر الجيري أو الكلسي مربعة الشكل، تبلغ مقاساتها حوالي: 97سم x 97سم، وأما سمكها فحوالي 24 سم، واللوحة مؤلفة من أربع إطارات تتفاوت في أحجامها، إذ يتميز الإطار الخارجي بالبساطة ثم يليه آخر على شكل زخرفة لولبية أو ما يشبه الحبل، ثم بمحاذاته إطار صغير بجانبه إطار أكبر منه حجما وقد خصه النقاش بمجموعة من الزخارف النباتية المختلفة، تمثلت أساسا في سيقان وأوراق وبراعم نباتية والتي غطت كل مساحات الإطار، وفي الوسط هناك إطار أكبر حجما من غيرها تتوسطه دائرة جعلها النقاش حيزا للكتابة، وزين الفنان كذلك زوايا الإطار الذي يحتوي الدائرة بزخارف نباتية، نفذت الكتابة بالخط المغربي وبأسلوب النقش الغائر، وتتألف كتابة اللوحة من أربعة أسطر، واللوحة في حالة متوسطة من الحفظ نتيجة لاندثار مادة الرصاص التي استخدمها النقاش في ملء تجاويف الكتابة، وهذا نظرا لطبيعة المادة المصنوعة منها.

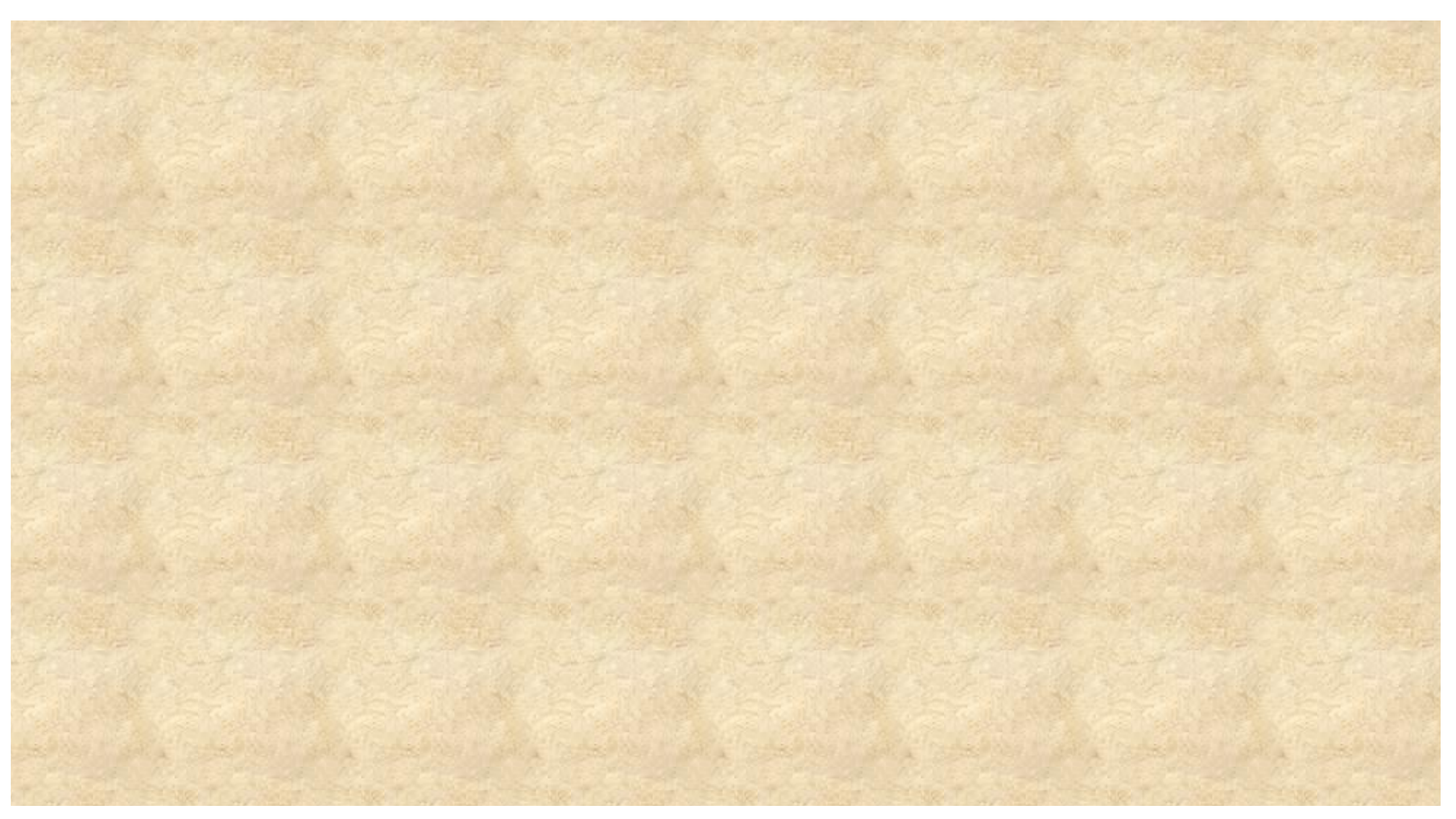
أما الإطار الخارجي فقد شغله الفنان بمجموعة من الزخارف الهندسية والنباتية، حيث تمثلت هذه الأخيرة في زخرفة لولبية صاعدة من الأسفل إلى الأعلى تشغل الإطارين الصغيرين للوحة من ناحية اليمين والشمال، إضافة إلى الزخرفة الهندسية التي تمثلت في الهلالان الذي يقع في ذروة هذه الزخرفة، أما الإطار الأوسط فهو أكثر حجما بحيث خصصه الفنان لمساحة الكتابة، حيث زين زواياه بزخرفة نباتية تتمثل في أوراق نباتية، نفذت كتابة الشاهد بالخط المغربي وبأسلوب النقش الغائر، وتتألف الكتابة من ستة أسطر، واللوحة في حالة متوسطة من الحفظ جراء الكسور الموجودة عليها وكذا تفتت بعض أجزائها.



الشكل رقم 04 : التفرغ الزخرفي الكتابة التأسيسية للأقواس



الصورة رقم 04 : الكتابة التأسيسية للأقواس



المسجد الأعظم مصطفى التهامي بمعسكر

موقع المسجد:

يقع هذا المسجد الكبير في قلب النسيج العمراني لمدينة معسكر، تحيط به بعض البنايات والمرافق، وقد أسس هذا البناء على سطح شديد الانحدار من الغرب إلى الشرق، ود غيرت تسمية هذا الجامع في وقتنا الحاضر، حيث يطلق عليه حاليا مسجد مصطفى بن التهامي، ويحد هذا المعلم من الناحية الشمالية حَمَّام الأدهم المعروف حاليا بحمام البركة، ومن الناحية الجنوبية يطل على الساحة العمومية مصطفى بن التهامي، وأما الجهة الشرقية فيقابل نهج أمهور إدريس، ومن الجهة الغربية يفصله زقاق ضيق عن بعض المحلات التجارية وقد خضع هذا المعلم حسب ما يبدو لتوسيعات وتجديدات من طرف البايات الذين تعاقبوا على حكم المدينة.

المؤسس:

بنى هذا الجامع من طرف الباي الحاج عثمان، الذي تولى بايا في المرة الأولى على تلمسان في سنة 1160هـ/1747م، ولكنه واجه تمردا من المسراتية وكان في مقدمتهم يوسف المسراتي والبعض ممن كان يناصر البايات السابقين، حيث حاولوا مرات عديدة لقتله، ولكنهم فشلوا، واستطاع هذا الباي قتلهم في النهاية، وولاه باشا الجزائر في المرة الثانية على جميع الإيالة الغربية في أواسط محرم سنة 1160هـ وبقي في الحكم مدة تسعة أعوام، حتى وافته المنية في سنة 1169هـ/1756م ودفن بها.

تاريخ التأسيس:

من خلال اللوحة التأسيسية يتبين أن هذا المسجد أسس في ولاية حكم الباي الحاج عثمان سنة 1160هـ/1747م، حيث يعد هذا المنشأ من بين الإنجازات المعمارية التي قام بها هذا الحاكم في معسكر، وفي هذا الصدد يقول صاحب كتاب دليل الحيران: "وهو الذي بنى الجامع الأعظم بالمعسكر سنة توليته، ونقش على حجارة اسمه وتاريخ البناء"، وقد وردت هذه الكتابة التأسيسية أيضا في عديد المصادر التاريخية والمراجع، فقد ذكرها أيضا صاحب كتاب سعد السعود، وأيضا في كتاب أنيس الغريب والمسافر¹ وكتاب تاريخ المساجد العثمانية.

تفكيك النص:

لقد وردت نصوص هذه الكتابة في أغلب المصادر والمراجع على النحو التالي :

- 1- الحمد لله حمدا لا نهاية لطوله
- 2- وصلى الله على سيدنا
- 3- محمد عبده ورسوله
- 4- أما بعد أمر ببناء هذا
- 5- المسجد المبارك المحمود
- 6- المعظم الأرفع القامع للعدا من جمع
- 7- بين الشجاعة والندى وطلع على
- 8- الناس بدرهدى صاحب لواء الحمد
- 9- الأسمى ومالك أزمة المجدي
- 10- الأحمى حاج الحرمين الشريفين
- 11- أمير المؤمنين المجاهد في سبيل
- 13- رب العالمين صاحب الرتبة العالية
- 14- وتحفة الملوك العثمانية

15- مولانا الحاج عثمان باي بن السيد إبراهيم خلد الله

16- ملكه ملكا عليا وهو

17- على الأمة واليا سميا

18- وكان ذلك في شهر شعبان

19- عام ستين ومائة وألف

والظاهر أن جل هذه المصادر قد وقعت في خطأ كبير في تفكيك مضامين هذه اللوحة الرخامية، ذلك أن ما تضمنته من ألفاظ وعبارات كان غير مطابق في بعضه لما هو مدون فيها، والظاهر أن هذه المصادر في حديثها عن هذه الكتابة التأسيسية قد اعتمدت على مبدأ التواتر، وهو الاستناد إلى مصدر أساسي ثم تناقلته فيما بعد بقية المصادر والمراجع، ولكن بعد قراءتنا المتأنية وتأملنا الدقيق في رسم هذه الكتابة تمكنا من استدراك بعض الأخطاء المتعلقة ببعض المفردات التي تمت إضافتها وأخرى غلب عليها الخطأ، فكانت قراءتنا للنصوص الكتابية لهذه اللوحة على النحو الآتي:

- الدراسة الوصفية:

لوحة مغروزة في جدار بيت الصلاة مصنوعة من الرخام، مقاساتها: 01,17م 46Xسم، وقد لونت كتابتها باللون الذهبي على خلفية سوداء، أما الإطار الهامشي الذي يحيط بمحيط اللوحة فقد لون باللون البني، وقد احتوت على تسعة عشر سطرا، نفذت كتابتها بخط الثلث المغربي وبأسلوب النقش البارز، وقد تضمن الإطار الكتابي للوحة قوسا على شكل مدخل بعقد مفصص، وأحيط كذلك الحيز الكتابي بشريط هامشي قوامه مجموعة من الوحدات الزخرفية المختلفة والمتتابعة في وضع أفقي بالنسبة للشريط العلوي والسفلي وفي اتجاه رأسي بالنسبة للإطار الهامشي الأيمن والأيسر.

9- الأسماء ومالك أزمة المجدي

10- الأحما حاج الحرمين الشريفين

11- أمير المؤمنين المجاهد في سبيل

13- رب العالمين صاحب الرتبة العالية

14- وتحفة الملوك العثمانية

15- مولانا الحاج عثمان باي بن السيد

إبراهيم خلد الله

16- ملكه ملكا عليا وهما

17- على الأمة وليا وسميا

18- وذلك في شهر الله شعبان

19- عام ستين ومائة وألف.

1- الحمد لله حق

2- حمده وصلى الله على سيدنا

3- ومولانا محمد نبيه وعبده

4- أما بعد أمر ببناء هذا

5- المسجد المبارك الميمون

6- المعظم الذي قمع العدى وجمع

7- بين الباس والندى وطلع على

8- الدنيا بدرهدى صاحب لواء العز

التحليل الفني لأوضاع الحروف الخاص بكتابة المسجد الكبير مصطفى التهامي بمعسكر:

لقد استطاع الفنان أن تجسد حروف هذه الكتابة في قالب فني مدروس، وفق حسابات دقيقة للمساحات الخاصة بالوحدات الفنية، وذلك من خلال الترتيب المكاني الصائب للحروف والتراكيب المستعملة والمختلفة في النمط والشكل على المساحات المخصصة في اللوحة، حيث تمكن من إيجاد نوع من التوازن في المفردات الخطية، حيث استطاع الفنان أن يوزع هذه الأخيرة على النسق العمودي لهذه اللوحات مما جعلها أكثر استيعاباً للمشاهد فيما يخص تركيبية وحداتها وتوازنها فيما بينها مع الفضاء المساحي الموجودة فيه، حيث أنه في أغلب الأحيان وحد المسافات الموجودة بين كلا الوحدات، مما يضي التوازن ويغلب السكون على تكويناتها الخطية. وعمد الخطاط إلى تزيين الفراغات والحروف بمختلف العلامات والحركات الخاصة بالنقط والشكل والزخرفة، لإعطاء بعد وظيفي وهو استعادة هوية العبارات، وبعد الجمالي الذي يقوم على إضفاء الحركة والحيوية والإيقاع لتلك الوحدات، فحافظ الخطاط بذلك بين المستويات العلوية والسفلية، وبين الفراغات والحروف، وقد جاءت الكتابة بعيدة عن التشابك والتعقيد، ويظهر ذلك جلياً في حروف العين والنون، وتمديده وتمطيته للبعض الآخر مثل حروف الباء والتاء، كما نجد الفنان قد خص الحروف القائمة في هذه اللوحة بالاستقامة والرشاقة خاصة (الألف واللام)، إذ رغم اختلاف مستوى قوامها بين الاستقامة والميل إلا أنها تبدو جميلة وتنتهي في ذروتها بشكل مسنن وأحياناً أخرى بترويسات.

ونجد الخطاط قد منح للحروف ذات البدن المدور حقها من التدوير في أغلب الأحيان وبل ونالت أخرى من هذه الخاصية مثل حروف الدال والراء، وأحياناً أخرى اتخذت الشكل البيضوي كما هو الحال في حروف الياء والنون، كما اتجه الفنان في أكثر من مرة إلى رسم الواوات والقافات وفق نسق دائري لكي تنال هي الأخرى نصيبها من التدوير وتساهم في إضفاء الحركة والتناغم.

وقد وفق أيضاً في المزاوجة بين المحورين الأفقي والعمودي، فالأفقي يركز على الحروف ذات المديات أو السحبات على غرار حروف: الشين والكاف، كما نجده أعطى الحروف ذات الذيل حقها في الاسترسال، حيث كتبت تحت خط قاعدي في إنسيابية لملء الفراغات المساحية في اللوحات، كما هو الحال في حرف الراء والعين المطرفة والنون حيث رسمها في أغلب الأحيان مجموعة في مستوى علوي فوق التراكيب الأخرى الأكثر حجماً، كما هو على سبيل المثال لا الحصر في واو العطف. كما أمعن الخطاط في هذه المجموعة في الاعتماد على خاصية المد أو الاستطالة للحروف الأفقية في عبارات "الحمد"، "نبيه"، "العالية". وأمعن الخطاط في هذه المجموعة في الاعتماد على خاصية المد أو الاستطالة للحروف الأفقية في عبارات "الحمد"، "نبيه"، "العالية".



الشكل رقم 04: التفريغ الفني لكتابة الجامع الأعظم بمعسكر



الصورة رقم 04: الكتابة التأسيسية لكتابة الجامع الأعظم بمعسكر

الكتابة التأسيسية لقبة الباى إبراهيم بمعسكر

موقع القبة: تقع هذه القبة في وسط مدينة معسكر، وبالضبط ملاصقة لمسجد، مصطفى التهامي، وتمثل في الوقت ذاته ملحقة من ملحقات هذا المعلم، وهي واتخذت فيما بعد ضريحاً للباى إبراهيم الذي دفن بها، حيث تعد هذه الأخيرة من أبرز إنجازات الباى الحاج عثمان المعمارية في مدينة معسكر.

المؤسس:

بنى هذه القبة الباى الحاج عثمان بن إبراهيم، والتي أصبحت فيما بعد مدفن للباى إبراهيم، وكان هذا الإنجاز المعماري تخليداً للشيخ عبد القادر الجيلاني، حيث أمر باى معسكر بذكر اسمه على هذه الكتابة، ويرجح أن يكون بناءها متزامناً مع بناء المسجد المذكور، كون المصادر التاريخية، ذكرتها دائماً مقترنة بالجامع الكبير.

تاريخ التأسيس:

يعود تأسيس هذه القبة كما هو مدون في نصوص هذه اللوحة التأسيسية إلى تاريخ الفاتح من محرم الحرام سنة 1167هـ / 1753م، وهي فترة حكم الباى الحاج عثمان الذي ذكرنا ترجمته آنفاً، والظاهر أنه بنى هذا المعلم في ولايته الثانية عندما ولي على كامل الإيالة الغربية وتلمسان، كتخليداً منه لذكرى العالم الصوفي الجليل عبد القادر الجيلاني، والواضح أن هذا الباى كغيره من البايات كان له وفاء وتعلق وتأثر بالطريقة القادرية، وهو ما يؤكد اهتمام السلطة الحاكمة بالمتصوفة وأقطابها في العهد العثماني، لما لهؤلاء من مكانة وحضور في قلوب ووجدان الأهالي.

تفكيك النص:

- 1- بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على مولانا محمد
- 2- أما بعد أمر ببناء هذه الدار المباركة الأمير
- 3- الأجل العدل الشهير الأكمل الرفيع
- 4- الحظ المجاهد المرابط المقسط عدله
- 5- في الجوائز مزن الناحية الغربية عبد الله
- 6- أمير المؤمنين مولانا الحاج
- 7- عثمان بن إبراهيم خلد الله ملكه وأدامه
- 8- ونصره حسبما أمرأيده الله بتشيد هذه
- 9- القبة العظيمة حرمة للشيخ الجليل سلطان
- 10- الصالحين سيد عبد القادر الجيلاني أدركنا
- 11- الله رضاه قصد بذلك وجه الله العظيم
- 12- وثوابه الجسيم بتاريخ فاتح محرم الحرام عام
- 13- سبعة وستين ومائة وألف.

ولكن بعد القراءة الفاحصة المتأنية، تمكنا من تتبع الكثير من الأخطاء في تفكيك نصوص هذه اللوحة، من طرف العديد من المصادر التاريخية، فكانت قراءتنا لهذه الكتابة على الشكل التالي:

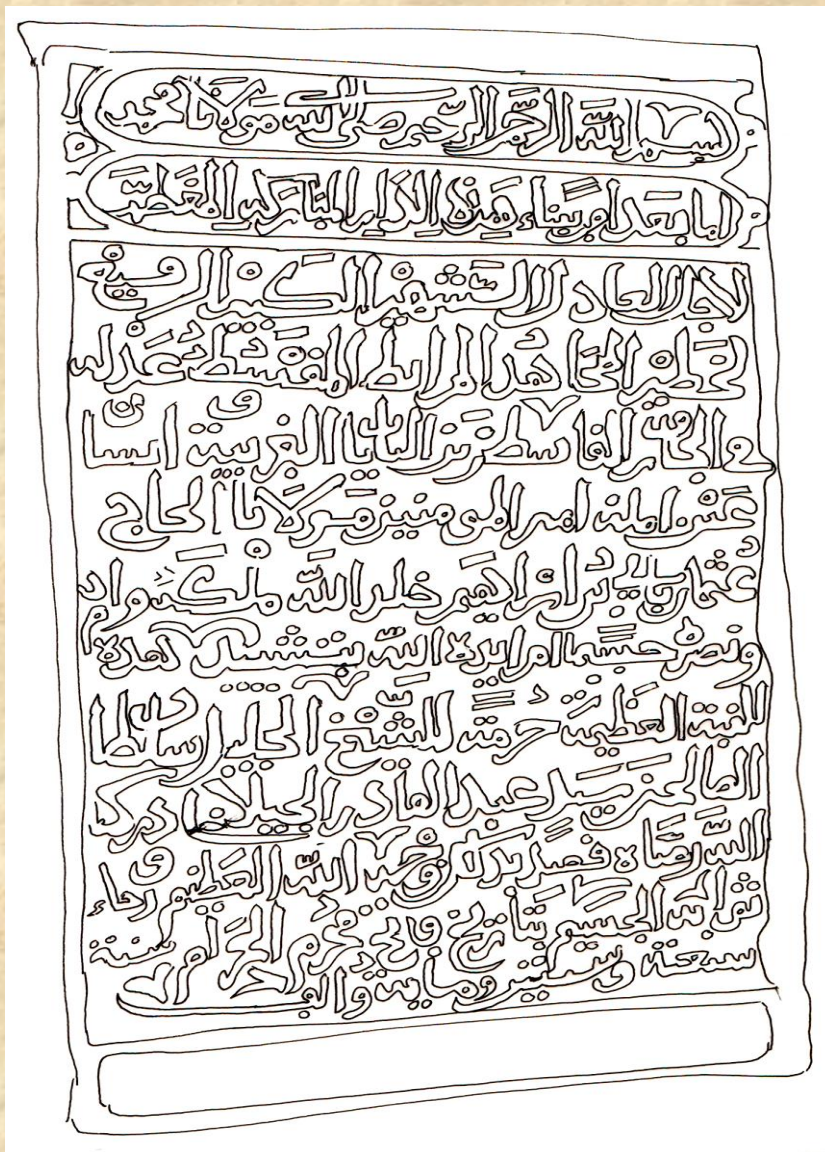
- 1- بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على مولانا محمد
- 2- أما بعد أمر ببناء هذه الدار المباركة المعظم
- 3- الأجل العادل الشهير الكبير الرفيع
- 4- الخطير المجاهد المرابط المقسط عدله
- 5- في الجار القاسط زين البايات الغربية [إنسان]

- 6- [عين أملنا] أمير المؤمنين مولانا الحاج
- 7- عثمان باي إبراهيم خلد الله ملكه و[أدامه]
- 8- ونصره حسبما أمرأيده الله بتشيد هذه
- 9- القبة العظيمة حرمة للشيخ الجليل سلطان
- 10- الصالحين سيد عبد القادر الجيلاني أدركنا
- 11- الله رضاه قصد بذلك وجه الله العظيم وأمل
- 12- ثوابه الجسيم بتاريخ فاتح محرم الحرام عام
- 13- سبعة وستين ومائة وألف.

وللإشارة فإن تحت هذا الإطار الكتابي الذي وردت فيه نصوص هذه الكتابة هناك شريط هامشي صغير أقل من الإطار الأول ويقع أسفله قد تضمن كذلك نقوشا كتابية، ولكن للأسف فإنها محيت وطمست، ولا ندري ما هي الأسباب والدوافع من وراء هذا الفعل الذي ليس من الأخلاق ولا احترام التراث الأثري، ولحسن الحظ ما تزال بعض المصادر تحتفظ بالصورة الأولية لهذه الكتابات، حيث نجد صاحب كتاب دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران قد تطرق إلى هذه النصوص المفقودة من هذه اللوحة في حديثه عن المضامين الكتابية العامة لهذه اللوحة: "وأمر بتحرير العلامة السيد محمد بن حواء وإخوانه، وبني عمه من جميع التكاليف المخزنية .

- الدراسة الوصفية:

لوحة من الرخام مثبتة في الجدار الجنوبي لبيت الصلاة، مقاساتها: 83سمX46سم، مؤلفة من ثلاثة عشرة سطرا، نفذت كتابتها ضمن ثلاثة أشرطة كتابية، استهلها الفنان بشريطين صغيرين أما الثالث فهو الأكبر والأكثر اتساعا، بحيث ضم النصيب الكبير من نصوص هذه الكتابة، التي نقشت بخط الثلث المغربي وبأسلوب النقش البارز، والجدير بالذكر فإن هناك أيضا شريط هامشي صغير أسفل الحيز الكتابي الذي تضمن أغلب الكتابة، قد احتوى هو الآخر على نقوش كتابية، ولكنها للأسف قد محيت وتم إزالتها، ولكن بقيت بعض ملامحها، كما نمق الفنان الإطار الكتابي بجملة من الزخارف النباتية الصغيرة جدا، والتي تمثلت في براعم نباتية وأوراق صغيرة، وكان القصد من ذلك هو القضاء على الفراغات المساحية في اللوحة .



الشكل رقم 04 : التفريغ الفني لكتابة قبة الباي إبراهيم



الصورة رقم 04 : الكتابة التأسيسية لقبة الباي إبراهيم

كتابة قبة الباى إبراهيم:

لقد أبداع الخطاط فى رسم حروف هذه اللوحة، حيث خص الحروف القائمة والمتصبة بالاستقامة والرشاقة، زاءها انتصاها فى إضفاء بعد جمالى لهذه الكتابة، كما استلهم هذا الخطاط مبدأ التطابق الحرفى فى حرف الباء الأولية والى ترسم صورتها كما دأب عليه الخطاطون الأولون مشابه لحرف اللام الأولية من حرف الجلالة "الله"، وقد نالت الحروف ذات البدن نصيبها من التدوير فى حروف النون والراء والميم، كما حافظ على بياض فتحات الحروف، كما هو الحال على سبيل المثال فى: "الفاء" و"الطاء" و"الميم"، وأما الحروف المسننة فقد جاءت فى مستوى على غرار حرف الالباء والنون والطاء، كما لاحظنا أن أسنان حرف السين جاءت أسنانه فى أغلب الأحيان متساوية فى الأمثلة التالية: "الشيخ"، "المقسط"، "سبعة"، ونجدها فى بعض الأحيان غير متساوية كما هو الحال فى لفظة "القاسط".

وعمد الكاتب إلى تقليص أحجام بعض الحروف مثل حرف الراء المدغمة وحروف الواو، كما رسمها مستقلة فى أغلب الحالات، حتى لا تثير التشابك والتعقيد، وحتى تجعل الناظر يتابع عن كثب من خلالها بقية نص الكتابة، كما أمعن الخطاط فى هذه المجموعة فى الاعتماد على خاصية المد أو الاستطالة للحروف الأفقية فى عبارات: "الشهير"، "الكبير"، "ألف"، والظاهرة الملفتة للانتباه فى هذه اللوحة هى اختراق بعض الحروف لبعضها البعض، حيث اخترقت الواو بدن الألف فى لفظة "الجار" واستقرت فوق هذه الأخيرة، ونفس الشيء بالنسبة لحرف التاء الذى اخترق الألف الصاعد فى عبارة "البايات"، وأيضا الياء الراجعة التى اخترقت الألف المركب الصاعد فى عبارة "باى"، بالإضافة إلى حرف النون أيضا الذى حذى حذو الحروف السابقة فى وتقاطع مع حرف اللام فى كلمة "سلطان".

كتابة جامع عين البيضاء (المبايعة) بمعسكر

الموقع:

يقع هذا المسجد في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة معسكر، بالضبط على بعد 300م من السور الشرقي للمدينة، وحسب الروايات المتداولة فقد جاءت تسمية هذا المعلم، نسبة إلى عين كانت موجودة أسفل السور ومبنية في أرض يميل لونها إلى البياض، واسم العين البيضاء يشمل كامل مساحة الحي الممتد بين العين، والجامع، ويطلق عليه أيضا اسم مسجد المبايعة ومسجد حسان.

المؤسس:

مؤسس هذا المسجد هو الباي محمد بن عثمان الكبير الذي يعد من أعظم بايات الغرب الجزائري، حيث إضافة إلى دحره للغزاة الإسبانية عن وهران والغرب الجزائري، فقد خلّد هذا الأخير الكثير من الآثار الحضارية والعمرانية، حيث تناولته العديد من المصادر التاريخية وأسهمت في عد خصاله ومكارمه وسيرته النبيلة وحبه للعلم والعلماء، وشغل هذا الباي عدة وظائف في السلطة العثمانية، كان من أبرزها تعيينه كخليفة للباي خليل الذي كان على رأس بايلك الغرب، وبعد وفاة هذا الأخير رقي إلى منصب باي إيالة الغربية وتلمسان، ويسرد صاحب كتاب دليل الحيران جانبا من سيرته فيقول: "أبو عثمان السيد محمد بن عثمان الذي قبضه الله لفتح وهران وأرشده السعادة والغفران، الممتطي منصة الرضوان، ومشيد راية الإسلام والإيمان وباسط مهد العدل والأمان، أتخفه الله برضاه وجدد له اللطف وأمضاه تولى سنة (1192هـ) على الصحيح، فكان رحمه الله من أهل البلاغة واللسان الفصيح فهو ثاني ملوك العثمانية... وبني الجامع الأعظم بـ (عين البيضاء) من بلد (المعسكر) وتاريخ البناء له ولمدرسته مكتوب بجانب محرابه ونسبته لطول العهد..."، وقد تميز عهد هذا الباي بالأمن والاستقرار، والرقي في جميع المظاهر الحضارية، كان من أبرز منجزاته على الصعيد العسكري فتح وهران، إضافة إلى تشييده الكثير من المنشآت المعمارية، والتي كان في مقدمتها هذا المعلم الديني. وقد ساق لنا ابن سحنون الراشدي جانبا من المعلومات الخاصة بظروف بناء هذا المسجد، حيث يقول: "...ثم شرع في بناء مسجده العظيم الذي لم يبني أمير مثله إتقانا وحسنا من بعد أن اشترى أرضه من أربابها بأغلى ثمن وهم مستبشرون ببيعها، وكان لا يصرف في شيء من متعلقاته إلا مما يدخل يده من طيب الكسب وحلاله وعذب زلاله فإن نفذ ما جمعه من ذلك تسلف من غيره إلى أن يقضيه من الحلال، فجاء كما تراه العين من المباني الرائقة والآثار الفائقة، مكتنفا بالمدرسة التي كاد العلم أن يتفجر من جوانبها وحبس عليه خزانة كتب هي في البيت التي بناها.

- لأجلها خارج زواياها بابها فيه وفي إحدى زواياها قبة عالية رائقة، كما حبس عليه الحمام العظيم الرائق بناءً وشكلاً الذي بناه قربه، وهو من أعز مبانيه، والدار الملاصقة لميضاة البديعة المحتوية على الستة عشرة مطهرة، واشترى له حدائق ودور، وحوانيت حبسها عليه..."، وتوفي الباي محمد بن عثمان الكبير سنة 1213هـ/ 1796م، حيث نجد هناك تضارب في مدة حكم هذا الباي، فصاحب أنيس الغريب والمسافر يذكر مدة حكمه بثمانية عشرة سنة، بينما محمد بن يوسف الزياني يؤكد على أن فترة حكم الباي عشرون سنة.

تاريخ التأسيس:

من خلال الكتابة الأثرية التي تعلو المحراب، يتبين لنا أن هذا المسجد أسس في حدود سنة 1195هـ/ 1780م من طرف باي الغرب الجزائري السيد محمد بن عثمان الكبير، وقد كان هذا الإنجاز في غاية الحسن والجمال، حيث تتجلى فيه أبرز الخصائص الفنية والمعمارية للعمارة العثمانية، مما جعله من أعظم المآثر العمرانية العثمانية في الغرب الجزائري، حيث يصف لنا كاتب الباي محمد الكبير: "ثم شيد المسجد الذي يحمل اسمه " جامع محمد الكبير، وقد نال هذا المسجد إعجاباً كبيراً من الجمهور، فراح الشعراء يتغنون به ويترنمون بزخارف جماله وينشدون قصائدهم الرنانة فيه :

ألق العصا وفك رحل ركائبي بالمسجد المنشى بأمر عسكر
المحكم التشييد في شرفاته فتراه يحسن كالرياض الممطر.

وقد فرغ من جميع تعلقاته من تنميق وغيره سنة ست وتسعين ومائة وألف، وهو الآن من عجائب هذا البلد يقصده الناس للتنزه والتعجب، فيحمل داخله على العبادة، حيث أنشد فيه ما يلي :

أنظر رعاك إله الخلق واعتبر لمسجد رائع قد لاح للبشر
وانظر لمنبره المسود تحسبه ليلا وفيه نجوم العاج كالزهر
وانظر لقبته العليا تحسبها عقيلة فوق كرسي من الحجر.

تفكيك النص:

- الكتابة الأولى الأفقية فوق المحراب : بسم
الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد
وءاله وصحبه .

- الكتابة الثانية الأفقية فوق المحراب : دائرة
اليمين: الحمد لله

- الكتابة الوسطى: أما بعد أمر بتشيد هذا
الجامع المبارك خليفة السلطان السيد محمد
باي بن عثمان .

- الكتابة الأفقية على يسار المحراب: انتهى
بحمد الله على يد المعلم أحمد بن محمد بن حج
حساين بن صارمشيق.

- الكتابة الأفقية يمين المحراب: التلمساني
رحمه الله في أول يوم ذي القعدة عام خمسة
وتسعين ومائة وألف .

نقشت هذه الكتابة على الجص على واجهة
المحراب في جدار القبلة للجامع، حيث تكونت
من ثلاثة أسطر .

1. الدراسة الوصفية:

هي عبارة عن كتابة نفذت على مادة الجص، على جدار القبلة في المسجد،
حيث شغلت الجزء العلوي فوق محراب الصلاة، وقد نفذت نصوص الكتابة
بالخط المغربي وبأسلوب النقش البارز، وتخللت هذه النقوش الكتابية سلسلة
من الزخارف الجصية المتنوعة، والتي تمثلت في الزخرفة النباتية بأنماطها
المختلفة إضافة إلى الزخرفة الهندسية بأنواعها المتعددة أيضا، والتي استمدت
أصولها من الطراز المغربي الأندلسي، وقد جعل الفنان هذه الكتابات في قوالب
مختلفة حيث نجد البعض منها اتخذ شكلا أفقيا فوق المحراب، والبعض على
اليمين منه، والبعض الآخر على اليسار منه كذلك مع دائرة صغيرة، إضافة إلى
كتابة مركزية تتوسطهم، والتي أرفقها النقاش بدائرتين إحداها على اليمين
والأخرى على اليسار.



الكتابة التأسيسية لمسجد عين البيضاء

التطور الفني لأوضاع الحروف لكتابة مسجد عين البيضاء

كما استمر في تطبيق خاصية التطابق الحرفي في حرف الباء الأولية، والتي رسمت صورتها مشابه لحرف اللام الأولية من حرف الجلالة "الله"، كما لاحظنا أن الحروف ذات البدن، قد نالت نصيبها من التدوير في حروف النون والراء والميم، كما حافظ على بياض وسطها، كما هو الحال في حروف الياء والنون في، واعتمد الخطاط على خاصية المد للحروف الأفقية، مما جعلها تساعد أحيانا في تقسيم الجوانب الخاصة بالوحدات في الكتابة، فرسمها مستقلة في أغلب الحالات، حتى لا تتميز بالتشابك والتعقيد، وحتى تجعل بصر الناظر يتابع عن كثب تناسقها في ظل الفضاء الكتابي.

كما استمر النقاش في استعمال الحروف القائمة مثل الألف واللام، والتي جاءت في عمومها مستقيمة، وتميزت بالرشاقة والاستقامة، أما حروف الذات البدن المدور فقد جاءت ذات استدارة، كما هو الحال في حروف النون والراء والعين.

وأما الحروف المسننة فقد جاءت غير متساوية في أغلبها، حيث ارتفعت بعض الأسنان عن مستويات الأخرى، ونفس الأمر بالنسبة لحروف السين حيث لم تتساوى أسنانه هو الآخر، والظاهرة التي تسترعي الانتباه هو إرسال الحروف ذات الذيل على شاكلة الواو.

